أهل الكهف .. بين الحكيم والندوي

بقلم: د. غازي مختار طليمات
سورية

لك أن تقول: أوثر أن يكون عنوان هذه المقالة: «أهل الكهف بين التوراة والقرآن» لاستلهام توفيق الحكيم مسرحيته من مصادر غربية مسيحية أو وثنية، أبرزها التوراة، ولاستلهام أبي الحسن الندوي بحثه من مصادر عربية إسلامية، على رأسها القرآن الكريم. خطر لي ما خطر لك، غير أنني وجدت العنوان الذي تقترحه أكبر مني ومما أكتب، فآثرت أن يكون: «أهل الكهف بين الحكيم والندوي»، لأسباب:

أولها: أنني أعتمد فيما أكتب على مسرحية الحكيم نفسها، لا على المصادر التي أخذ منها الحكيم، وعلى ما كتبه الندوي في كتيبه «الصراع بين الإيمان والمادية» لا على سورة الكهف، وما قال في تفسيرها المفسرون.

وثانيها: أن كل كاتب حينما يستوحي أفكاره من مصدر ما يضيف بقصد أو بغير قصد تصوره إلى المصدر الذي صدر عنه، فيأتي أثره الجديد مشوباً بشوب من تفكيره وفلسفته في الحياة ونظرته إلى الكون، ولا يأتي بالضرورة ممثلاً للأصل الذي صدر عنه، أو تفرع منه.

وثالثها: أن الفكرة المستوحاة من مصدر قديم أو حديث حينما تتحول إلى مسرحية أو قصة أو قصيدة أو مقالة لا تستطيع - مهما يُؤت صاحبها من التجرد والدقة - أن تتجنب الأثر النفسي الذي ينجم عن انفعال الكاتب، والأثر الفني الذي يتركه النوع الأدبي في البناء الجديد. ولهذا وجدت أن نسبة الأثر إلى صاحبه أولى من نسبته إلى مصدره.

قبل أكثر من نصف قرن كتب عملاق المسرح العربي توفيق الحكيم مسرحيته الذهنية «أهل الكهف» مستوحياً أحداثها وأفكارها وأشخاصها وبيئتها من مصادر طغى فيها الطابع الغربي المسيحي على الطابع العربي الإسلامي. فزمان المسرحية عنده مرتبط بزمان الإمبراطور الروماني (دقليانوس) الذي حكم الإمبراطورية الرومانية قبل أن يظهر الإسلام بعدة قرون. ومكانها قصر الملك نفسه وكهف في إمبراطوريته الواسعة قرب مدينة (أفسوس) وأبرز شخوصها إلى جانب دقليانوس: (مشلينا، ومرنوش، ويمليخا، وبريسكا). وأهم أحداثها أن مشلينا أحب بريسكا ابنة الإمبراطور الوثني، لكن إيمانه بالمسيحية بغضه إلى الإمبراطور وحاشيته، وأشلى عليه

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان

الحكام الوثنيين، فاضطهدوه، وأرغموه على مفارقة بلده بل وصاحبته. فمضى مع زملاء له مسيحيين يبحثون عن مأمن. وقادهم البحث إلى كهف منعزل، فأووا إليه، وناموا فيه أكثر من ثلاثمائة سنة. وفي أثناء نومهم الطويل كانت المسيحية قد قهرت الوثنية. فلما استيقظوا وعادوا إلى مدينتهم تسلل مشلينا إلى القصر الملكي يتحسس الأخبار، وهو لا يدري أنه نام مع صحبه ثلاثة قرون، فوجد في القصر فتاة تسمى بريسكا، تشبه من كان يحبها، فظنها صاحبته، وهي في الحقيقة فتاة أخرى تحدرت من الجدة الملكية القديمة، وورثت قسماتها وسماتها، واسمها ونسبها، فراح يتودد إليها، وهي تنفر منه وتستغرب مسلكه.

وبعد محاورات تدور بينه وبينها ينكشف السر، وتدرك بريسكا الحفيدة الجديدة وأهل القصر المسيحيون، وسكان البلد جميعاً أن هؤلاء الفتية الغرباء الدخلاء هم القديسون الذين حدثهم عن غيابهم تاريخهم الروماني، وأنهم بمعجزة إلهية ناموا ثم قاموا. فأحاطوهم بالإجلال والتقديس. غير أن الفتية أحسوا أنهم بعثوا في زمان لا يناسب ما عرفوا، ولا يلائم ما ألفوا، وأن تطور الحياة قد تجاوزهم، وحولهم إلى غرباء في وطنهم عاجزين عن معايشة قومهم في عصرهم الجديد، فآثروا العودة إلى الكهف، وأسلموا أنفسهم إلى سلطان الموت ليخلصهم من كآبة الغربة، ومن العجز عن مقاومة الزمن، وعن التلاؤم مع مفاهيم وعادات وأفكار لا يستطيعون أن يرفضوها، ولا يقوون على مسايرتها ومعايشتها.

أما خلاصة ما كتبه الندوي فهي أنه في مدينة أفسوس الرومية كانت المادية وما يتبعها من الوثنية السافرة والأبيقورية الوقحة قد بلغت أوجها وزهوها. والتاريخ يشهد أن الوثنية تقترن بالشهوانية، وأن المادية آنذاك جرفت القيم، وتركت مجتمع الرومان فاسقاً عاشقاً للفواحش، لا يدين بغير المحسوس، ولا يشبع من اللذة، وأن الحكومة كانت تتعقب من يخالف دينها الوثني، وأنه وجد في هذا المجتمع رهط من الصالحين تسربت إليهم دعوة المسيح عليه السلام، فصادفت منهم عقولاً واعية، وقلوباً خاشعة، فآمنوا بها.

وبهذا الإيمان صارع الفتية الوثنية، فعاداهم حكامهم، ولهذا اضطر الشباب المؤمنون إلى التخلي عما يتيحه لهم انضواؤهم تحت الوثنية من متارف، وانضووا تحت اللواء الإلهي الذي هيأ لهم من أمرهم رشدا، وآتاهم السكينة والطمأنينة في مجتمعهم الصاخب بالكبائر، الموار بالفجار. وهكذا انتصر الإيمان على المادة، وأوى الفتية إلى الكهف، فأمدهم الله بتأييده، وزادهم هدى، وربط على قلوبهم وأكرمهم غاية الإكرام، وثبتهم على عقيدتهم كما يثبت عباده الصالحين في كل عصر، وفي كل مصر.

وفي الكهف لبث الفتية يتدارسون ما حملوه معهم من كتب المسيحية، فلما نفد زادهم قدر الله عليهم أن يناموا، فناموا ثلاثمائة وتسع سنين بالتوقيت القمري، أي: ثلاثمائة بالتوقيت الشمسي. وفي فترة النوم هذه كانت أحوال الرومان قد تبدلت، إذ انتصرت المسيحية وقهرت دعوتها الإنسانية مظالم القيصر، وظهر الإنجيل على التضليل، فبعث الله الفتية من مرقدهم، فوجدوا أنفسهم جياعاً، فأرسلوا واحداً منهم إلى المدينة سراً، ليأتيهم بطعام طيب، وهم يعتقدون أن قومهم لم يفارقوا الوثنية.

لما عرف أهل المدينة خبرهم، ورأوا عملتهم القديمة أدركوا أنهم القديسون المغيبون، فأقبلوا عليهم زرافات ووحداناً، وحولوا كهفهم المهجور إلى معبد مقدس، وعاش أهل الكهف بين قومهم ما شاء الله لهم أن يعيشوا إلى أن طواهم الموت، وهم أبطال لامضطهدون، ومؤمنون لا وثنيون، وقادة لا متهمون وملاحقون.

بعد أن فرغ الندوي من سرد القصة راح يناقشها، ويستنبط منها القيم، فرأى أنها تمثل الإيمان والفتوة والثبات والجهاد، وأنها ليست فريدة في مغزاها، وإن كانت فريدة في أحداثها وأشخاصها، لأن التاريخ أثبت أن الإرادة الإلهية تحالف الإيمان وتنصره على الشرك، وأن المؤمن الذي يتجاوز الأسباب إلى خالق الأسباب ظاهر على أعدائه. ولهذا أراد الله سبحانه أن يقوي موقف النبي

محمد ﷺ، وأن يربط على قلبه، وهو يجابه المشركين، كما أراد أن يبغض إليه الزخارف والمترف التي تستهوي ضعاف القلوب وأصحاب الأهواء، فقص عليه هذه القصة: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ . (الكهف).

ورأى الندوي أن حضارة الغرب الحديثة نسخة منسوخة عن حضارة الرومان القديمة. فهي تُطري أصحاب الملايين، وتزري بالمساكين، وهي تميل إلى الغلو والتطرف. إذ تغلو في الإثراء، فينجم من ذلك الغلو المثري غلو محروم. وتغلو في الديمقراطية كما تغلو في الديكتاتورية، وتغضي عن دناءة الوسيلة في سبيل الوصول إلى الغاية، وتهزأ بالاستقامة إذا لم تبلغ صاحبها رغابه. ولهذا كله وجد الندوي أن الحضارة المادية التي صنعها الغرب فقدت الاتزان لإهمالها الدين والأخلاق، واتصفت بالشطط والزيغ والعوج لإغراقها في التفكير الحسي المادي، وإعراضها عن الروح.

لقد نظر الندوي إلى أهل الكهف بعينين تتجهان اتجاهين مختلفين: العين الأولى اتجهت إلى حضارة روما، فسفهت شهواتها، والعين الثانية نظرت إلى الحضارة الغربية الرأسمالية، فضاقت بإسرافها وزيفها. وباختصار نقول: إن الندوي المتضلع من الثقافة الإسلامية أدار قصة أهل الكهف حول محور واحد، ثم استنبط منها أكثر من عبرة. أما المحور فهو الإيمان. وأما العبر فكثيرة

أبو الحسن الندوي

منها الدعوة إلى التشبث بالعقيدة، والإخلاص للمبدأ، والتضحية في سبيله، والاعتماد على الله، والثقة التامة بنصره الموعود.

فإن رجعت إلى توفيق الحكيم المفتون بحضارة الغرب وجدته يدير مسرحيته حول محور الدنيا، لا حول محور الآخرة، ويستنبط منها عبرة أخرى، تتعلق بسلطان الزمان على الإنسان، لا بلجوء الإنسان إلى الرحمن واستلهام قوته من الإيمان. لقد ارتشف الحكيم عبرته من كأس الفلسفة لا من كوثر الإسلام، وكأنه يريد أن يقول للبشر: إنكم - شئتم أم أبيتم - أبناء عصوركم، فأقرّوا بالتطور، وسايروا ما يفضي إليه، فإن رفضتم أو عارضتم لم يبق لكم مكان في زمانكم، واضطررتم إلى المعارضة، وحملتكم المعارضة على واحد من مركبين كلاهما زلق قلق: أولهما أن تجبهوا التطور بالتحجر، وأن تناطحوا جبهته القرناء بجباهكم الجمّاء، فإذا أنتم المدحورون.

وثانيهما أن تسالموا التطور ، ولا تستسلموا له، وأن توادّوه ولا تحادّوه، فتحيون فيه ، وأنتم كارهون مكروهون.

وحينئذ سيؤول بكم المطاف إلى ما آل بأهل الكهف، حينما فارقوا مدينة أفسوس،وعادوا إلى كهفهم، لا ليفروا بعقيدتهم التي أصبحت دين الدولة، بل ليفروا مما لم يعاصروا، ثم لعجزهم عن أن يُعيدوا ما تعوّدوا.

وههنا يكمن الخلاف الجوهري بين الحكيم والندوي:

الحكيم يسلم قياده إلى الزمان آخذاً بما يجدُّ فيه، معرضاً عما رث منه، معتقداً أن الخط البياني للتطور أبداً في صعود، وأن كل حاضر أرقى من كل ماض، وأدنى من كل مستقبل، وأن الوقوف في محطة، ولو لفترة قصيرة يعني التخلف عن الركب المستمر في الاندفاع إلى الأمام، وأن الواقف في زماننا كالراجع إلى زمان غيرنا، وإن لم يمش القهقرى، وأن السائر كالراكض، وإن سار الهوينى.

والندوي يسلم قياده إلى الإيمان، ويتشبث بالقيم والمثل، ولا يسمح للتطور المادي الذي أغرق الدنيا بشهواته أن يجرفه لئلا ينساق مع الساقة المنساقة في ركاب الغرب على غير هدى ولا كتاب مبين. إنه يقبض بيديه كلتيهما على حبل الله، معتصماً بالعروة الوثقى، زاهداً في الغلو، مؤمناً بالوسطية، مفضلاً ثوابت العقيدة على متغيرات الحضارة.

ولهذا لم يحكم على أهل الكهف بالعودة إلى كهفهم، بل أبقاهم في معمعة الحياة، لا تعلقاً بالحياة الفانية، بل إخلاصاً للمبدأ الذي ناموا في كهفهم حفاظاً عليه. فنهايته أبقى من نهاية الحكيم وأرقى، وأنبل وأكمل ■